الفصل الأول

اليهود في مصر قبيل الاحتلال البريطاني

اليهود في مصر خلال عصر إسماعيل

من سنة ١٨٦٣م إلى ١٨٧٩م

- النشاط الاقتصادي.

- النشاط الثقافي.

(أ) المجال التعليمي.

(ب) المجال الأدبي والمسرحي.

(ج) المجال الصحفي.

عاشت الطائفة اليهودية في مصر منذ أقدم العصور كما هو معروف، وكان لها نشاط في مختلف المجالات، مثل سائر الطوائف الدينية التي تمتعت بالأمن والاستقرار في مصر.

فكان لليهود نشاطهم الاقتصادي، وهذا أبرز مجال برع فيه اليهود على المستوى العالمي. كذلك كان لهم نشاطهم في المجال الاجتماعي، ولم يكن هذا النشاط واضحًا خلال عصر إسماعيل إذا قورن بنشاطهم الاجتماعي فيما بعد. هذا بالإضافة إلى نشاط الطائفة في المجال الثقافي؛ وإن كان محصورًا في أيدي أفراد معدودين من أبناء هذه الطائفة.

ونتعرض في هذا الفصل لكل من النشاط الاقتصادي والنشاط الثقافي.

أولًا: النشاط الاقتصادي

لقد استغل اليهود في مصر بساطة وأمانة الشعب المصري، فسيطروا سيطرة تامة على اقتصاد هذا البلد، مستخدمين في ذلك أخبث[1] الأساليب وأبشعها «الربا».

(١) يعقوب خوري: يهود البلدان العربية، ص٢٧.

لقد أشار «محمد طلعت حرب» في كتابه[١] إلى تلك البساطة بين المصريين، فقال: «بقي أهلها على حالة البساطة في المعاملات، لا يتدخل بينهم أجنبي، ولا يعرفون الكمبيالات ولا التحويل، فكانت قاعدة المعاملة يحتاج الواحد منهم للمال فيطرق باب جاره يقترض منه، لا يكتب سندًا ولا يمضي صكًّا، فإذا كانت معاملاتهم على حد القول المشهور: الناس بالناس، واليوم لك وغدًا عليك».

ومن هنا تظهر طبيعة الشعب المصري الذي كان دائمًا مغلوبًا على أمره.

اشتهر اليهود منذ القدم بالسمسرة والربا في جميع أنحاء العالم، وإن كانوا قد وجدوا مجالًا أرحب في مصر لهذا العمل. ولعل السبب في ذلك هو ما عُرِف عن المصريين من عدم معرفتهم بأمور المال والاقتصاد في ذلك الوقت.

حقيقة أن جميع الأديان السماوية -سواء اليهودية أو المسيحية أو الإسلام- حرَّمت الربا في نصوص صريحة لا تحتاج إلى تفسير؛ لأن كل دين مهمته الأساسية استنكار ما عليه الناس من أوضاع وتصرفات غير إنسانية[٢]، وذلك بحث البشرية على ضرورة تغيير ومحو هذه الأوضاع، وتهيئة النفوس لاستقبال أوضاع جديدة تسمو بالإنسان عن الماديات.

ومن البديهي والمنطقي أن يكون الربا في مقدمة الأوضاع غير الإنسانية التي استنكرتها مختلف الأديان السماوية؛ لأن للربا مضار مختلفة سواء من الناحية

(١) علاج مصر الاقتصادي، مشروع بنك المصريين أو بنك الأمة، ص٨.

(٢) عز العرب فؤاد: الربا بين الاقتصاد والدين، ص١٣.

الأخلاقية والروحية، أو من الناحية المدنية والاجتماعية، أو من الناحية الاقتصادية.

ومن هنا يمكن القول أن اليهود اشتهروا منذ القدم بالسمسرة والربا في جميع أنحاء العالم؛ إلا أنهم وجدوا مجالًا أرحب لنشاطهم هذا بين الشعب المصري؛ إذ أصبحت مصر مسرحًا للمرابين خلال عصر إسماعيل، حتى أُطلق على هذا العصر اسم «العصر الذهبي للمرابين»[1]؛ وذلك بسبب عمليات الربا التي تمت أثناءه.

ولعل السبب في كثرة عمليات الربا التي تمت في عصر إسماعيل كانت الحرب الأهلية الأمريكية؛ التي أدت إلى رفع سعر القطن المصري في كافة أنحاء العالم، ذلك المحصول الذي كان اليهود يسيطرون عليه بكافة الوسائل؛ فقد كانوا يعطون الفلاح المصري ما يسدد به الضرائب المفروضة عليه، أو يمول به زراعة هذا المحصول.

هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا حريصين على أن يحددوا موعد سداد ديون الفلاح المصري بشهر أكتوبر، فكان اليهودي يعطي الفلاح نقودًا يحصل عليها منه في شهر أكتوبر، فكان يضارب به في بورصة القطن التي كانت هي الأخرى بدورها يسيطر عليها يهود، وسيتضح هذا فيما بعد.

كان المرابون اليهود يقسمون مصر فيما بينهم إلى مناطق مراباة، حتى لا يتعدى أحدهم على حق الآخر، فانتشر هؤلاء المرابون في مصر من أقصاها إلى

(١) د. لطيفة محمد سالم: القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، ص٣٣.

أدناها، كما ينتشر خيط العنكبوت[١]، ولم يقتصر وجود المرابين في مصر على المناطق الريفية فقط، وإنما وجدت لهم محلات في المدن الكبرى، وكما هو معروف -وسبقت الإشارة إليه- أن اليهود اعتبروا الربا حرفة برعوا فيها كثيرًا على المستوى العالمي، والدليل على ذلك عائلة روتشيلد التي كانت مقيمة في الحي اليهودي بفرانكفورت[٢] بألمانيا.

وهذه الأسرة اليهودية لم تكن تتاجر في أي سلعة سوى المال، حتى عرفت بثرائها الفاحش في جميع أنحاء العالم.

ومن خلال البحث اتضح أن الربا في مصر كان يتم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو إقراض الفلاحين المصريين الأموال بفوائد عالية، وفي بعض الأحيان كان المرابون يقومون بتزوير قيمة المبلغ الممنوح، أو قيمة الفائدة، مستغلين في ذلك أمية الفلاح المصري؛ إذ إن هذا الفلاح كان يختم على ورقة بيضاء غير مدون بها لا المبلغ ولا الفائدة المحسوبة عليه، فما كان من هذا المرابي اليهودي إلا أن يضع ما يراه من المبلغ والفائدة إذا أراد الانتقام أو إذلال الفلاح المصري.

النوع الثاني: فكان متمثلًا في قيام المرابي بشراء المحصول من الفلاح قبل موعد جنيه، وبالرغم من هذا فقد كان المرابي اليهودي لكي يهرب من المسائلة يدون في العقد رقمًا أعلى من الرقم الدال على ثمن الشراء إذا تعرض لها،

---

(١) محمد طلعت حرب: المرجع السابق، ص١٤.

(٢) هـ - جـ. ويلز: الأغنياء والفقراء، ترجمة زكي نجيب محمود، ص١٢.

وبذلك كان ما يتقاضاه الفلاح المصري ثمنًا لمحصوله مخالفًا تماما لما كان مدونًا في عقد البيع.

النوع الثالث: وكان يلجأ المرابي إليه إذ إنه كان يعطي الفلاح الذي يطلب منه مبلغ من المال، يعطيه سلعة ما بسعر أعلى من ثمنها، ليبيعها في السوق بثمن أقل بكثير، حتى يحصل هذا الفلاح المسكين على المال الذي يحتاج إليه.

ومن خلال هذه الحيل -أو أنواع الربا- يمكن تصور فداحة هذا النظام، وأثره السيئ على المجتمع المصري في الريف أو في المدينة.

وبعد هذا العرض لنظام الربا وحيل وأساليب اليهود لتطبيق هذا النظام في مصر، لا بد من تسجيل عدة ملاحظات:

١- أن المرابين اليهود كانوا يفضلون دائمًا شراء محصول القطن عن غيره من المحاصيل الأخرى؛ باعتباره محصولًا نقديًّا. والدليل على تفضيلهم لهذا المحصول أنهم -أي اليهود- كانوا حريصين على جعل ميعاد سداد ديون الفلاحين شهر أكتوبر، وهو الشهر الذي يجني الفلاح فيه القطن، حتى أن الفلاح المصري أطلق على هذا الشهر من شهور السنة شهر المرابين[1].

ومن هنا يتضح إلى أي مدى كان ذكاء المرابي اليهودي.

٢- ملاحظة أخرى وهي أن الحكومة المصرية ساهمت مساهمة فعالة في تنشيط عملية الربا، عن طريق تقديمها ميعاد دفع الضرائب التي كانت

(١) الدكتورة لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص٣٤.

مفروضة على الفلاح المصري عن ميعاد جني المحاصيل، ولم يكن أمام هذا الفلاح سوى اللجوء إلى المرابي اليهودي، ليأخذ منه ما يدفعه إلى الحكومة المصرية.

وعلى هذا فإن الحكومة كانت مسئولة مسئولية تامة عن إشاعة نظام الربا في مصر خلال هذه الفترة، وهي في الواقع فترة مفقرة للمصريين ومثرية للمرابين من اليهود؛ إذ إنه كثيرًا ما أثرى العديد من اليهود بما أقرضوا للمصريين.

٣- وبالإضافة إلى هذا هناك ملاحظة ثالثة؛ وهي أنه من الأمور التي تدعو للتعجب من المرابين أنهم كانوا دائمًا يرددون عبارة أنهم تجار شرفاء، ولم يكن يجرؤ أحد على النطق بكلمة مرابي أمامهم، وكثيرًا ما كانوا يرددون أيضًا أنهم يخاطرون بأموالهم في سبيل رفع العناء عن الفلاح المصري.

٤- أمَّا عن الملاحظة الأخيرة على هذا النظام من المعاملات التجارية السيئة، فهي أن المرابين اليهود كانوا لا يلحون على الفلاح المصري في دفع ما عليه إن كانت حالته المادية متيسرة، وفي كل عام يجدد المرابي العقد المبرم بينه وبين المصري، مع إضافة الفائدة إلى رأس المال، واحتساب فائدة جديدة على الاثنين معًا، حتى يصبح المبلغ ضعف ما أخذه الفلاح المصري عشر مرات، وهنا يبدأ المرابي في طلب أمواله المضاعفة، وإذا لم يستطيع الفلاح سداد هذا المبلغ المضاعف، فلم يكن أمامه سوى رهن أرضه أو ما يملك إلى المرابي اليهودي، أو اللجوء إلى الاقتراض من مرابي يهودي آخر، ليدع ديون المرابي الأول ... وهكذا ساءت حالة المصريين عامة والفلاح بصفة خاصة بسبب هذا النظام البشع في أسلوبه، وفيما عدا النشاط الربوي اليهودي فقد كان نشاطهم

الاقتصادي خلال تلك الحقبة التاريخية محدودًا، ولم تنتشر أنشطتهم في مختلف المجالات الاقتصادية بهذا الانتشار الواسع الذي عرف عن اليهود في مصر خلال العشرينيات من القرن العشرين[١].

ويرجع نشاط الجماعات اليهودية الاقتصادية في مصر بالدرجة الأولى إلى الامتيازات الأجنبية، التي كانت تعني أن يعامل صاحب هذا الامتياز معاملة خاصة، وقد استغل اليهود هذه الامتيازات في القيام بالأعمال الخيرية والاجتماعية لخدمة أبناء الطائفة.

وهنا يجب تسجيل ملاحظة؛ وهي أنه قد طرأ تغيران على الجاليات الأوربية في مصر؛ هما[٢]:

التغير الأول: تغير كمي.

التغير الثاني: تغير كيفي[٣].

خلال عصر سعيد وإسماعيل كان التغير الكمي متمثلًا في زيادة عدد الأوربيين عامة واليهود خاصة خلال هذه الفترة.

---

(١) أ.د. عبد العظيم رمضان: الصراع بين الطبقات، ص٤٥.

(٢) يدخل مع هذه الجاليات الأوربية اليهود الذين هاجروا من أوربا، وأكبر هذه الهجرات ١٨١٢م، وكانت بسبب سوء المعاملة التي لاقاها يهود شرق أوربا.

(٣) أ.د يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية (١٨٧٨-١٩٥٣م) ص١٢.

أمَّا عن التغير الكيفي فقد كان متمثلًا في زيادة نشاط هؤلاء الأجانب، بسبب الامتيازات التي حصلوا عليها، وهنا يجب الإشارة إلى أنه ليس الأوربيون فقط هم الذين كانوا يتمتعون بهذه الامتيازات في مصر، بل وجد شرقيون أيضًا وكان منهم يهود.

ومن خلال البحث والدراسة في الوثائق وجدت عائلات يهودية ترجع جذورها إلى جذور شرقية، لعبت دورًا خطيرًا في الاقتصاد المصري[1].

وترتب على هذه الزيادة الكمية والكيفية لليهود في مصر، أن سيطروا على جميع مرافق البلاد من تجارة داخلية وخارجية، وأنشأوا الشركات والمصارف[2].

وعلى هذا حُرِم المصريون من الإسهام في المشروعات التي كانت حكرًا على اليهود في مصر، حتى أن اليهود أصبحوا يشكلون كيانًا مستقلًا في البلاد، وكانوا مزيجًا من الاستغلال والاستعباد للشعب؛ وعلى هذا فإن نشاط الجماعات اليهودية في المجال الاقتصادي خلال عصر إسماعيل كان محصورًا في عمليات الربا، كما هو معروف وسبقت الإشارة إليه؛ غير أنه يجب الإشارة إلى وجود نشاط اقتصادي محدود لهذه الجماعات، وبالرغم من هذا كان نشاطًا عظيمًا. فالتنظيم في النشاط الاقتصادي أخذ سمات النشاط الاقتصادي للجماعات اليهودية، ليس في مصر فقط وإنما في جميع أنحاء العالم.

---

(١) انظر الفصل الثاني الخاص بالنشاط الاقتصادي.

(٢) محمد فهمي لهيطة: تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، ص٢٢٣.

والدليل على هذا التنظيم أن الجماعات اليهودية في مصر كانت تنقسم من حيث النظام الاقتصادي إلى مجموعتين[١]:

المجموعة الأولى: هي تجمع الإسكندرية، وقد أنشئ هذا التجمع سنة ١٨٤٠م، وكانت صلته وثيقة ببريطانيا، وكانت لعائلة موصيري نفوذها في هذا التجمع.

المجموعة الثانية: فهي متمثلة في تجمع القاهرة، وقد طالب هذا التجمع بدوره أيضًا بالحماية البريطانية سنة ١٨٤٤م، وكانت لعائلة قطاوي نفوذها هي الأخرى في تجمع القاهرة.

وبعد ذلك التاريخ بسنوات ونتيجة تدفق اليهود المهاجرين -أغلبهم من اليهود الاشكنازيين- على مدينة الإسكندرية، تكون تجمع ثالث خاص باليهود الاشكنازيين، وقد حاول البارون دي منشه المقيم بالإسكندرية توحيد نشاط هذه الجماعات اليهودية الاقتصادي.

ومن خلال هذه التجمعات كان عمل اليهود الاقتصدي في مصر خلال هذه الفترة. وعندما تأسست الشركة المساهمة للملاحة البحرية سنة ١٨٥٧م وجد عدد من اليهود في مجلس إدارتها، الذي كان يتشكل من خليط من الوطنيين والأجانب معًا، هذا بالإضافة إلى أنه عندما أنشئ مجلس القومسيون سنة ١٨٦١م كان أحد أعضائه من اليهود[٢]. وكان هذا المجلس يختص بالنظر في

---

(١) الأهرام الاقتصادي: العدد ٦٣٦، ٢٣ مارس ١٩٨١م، ص١٩.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، جـ١ ص٤٧.

القضايا التي كانت ترفع من قبل الأجانب على المصريين، وكان من حق القنصليات الأجنبية في مصر أن ترسل عنها مندوبين لحضور جلسات هذا المجلس. كذلك عمل اليهود خلال هذه الفترة في البورصة، فيظهر نشاطهم في بورصتين هما:

بورصة العقود التي أنشئت بالإسكندرية سنة ١٨٦١م، والتي تعتبر من أقدم البورصات في العالم[١].

أما بورصة امتلاك الأجانب للعقارات في مصر: فلم يكن للأجانب حق ملكية العقارات في الدولة العثمانية حتى فبراير سنة ١٨٤٢[٢].

ولكن بعد صدور اللائحة السعيدية سنة ١٨٥٩م أصبح الأجانب يقبلون كأفراد على استثمار أموالهم في شراء هذه العقارات، أو عن طريق تقديم القروض المالية للفلاح المصري، وعند عجزه عن سداد هذه القروض يستولي ذلك الأجنبي «المرابي» على عقار هذا الفلاح، رغب في ذلك أم رفض.

ومنذ سنة ١٨٦٠م أصبح للأجانب الحق في أن يقيموا محالج للقطن في المزارع التي كانوا يغتصبونها من الفلاحين البؤساء بطرق اغتصابهم المعروفة.

---

(١) د. نبيل عبد الحميد السيد أحمد: رسالة دكتوراه غير منشورة تحت عنوان: النشاط الاقتصادي للأجانب وأثره في المجتمع المصري من ١٩٢٢م إلى ١٩٥٢م، ص٢١٦.

(٢) أ.د رءوف عباس حامد: النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة من سنة ١٨٣٧م- سنة ١٩١٤م، ص١٠١.

وفي يونية سنة ١٨٦٧ م أصدرت الدولة العثمانية قانونًا خاصًّا بالترخيص للأجانب، بامتلاك العقارات في جميع الولايات التابعة للدولة العثمانية، ما عدا إقليم الحجاز[١].

ولا شكَّ أن ما كان ينطبق على الأجانب كان ينطبق على اليهود؛ حيث كانوا يحتمون بالحماية الأجنبية؛ إلا أنه يجب الإشارة إلى أمر هام؛ وهو أن اليهود لم يقبلوا كثيرًا على تملك الأراضي الزراعية، بسبب اعتقادهم في أن الزراعة أموال غير منقولة وثابتة، فكانوا كثيرًا ما يحولون الأراضي الزراعية التي يغتصبونها من الفلاحين المصريين بحيلهم المعروفة إلى أراضي بناء، أو إقامة بعض المشاريع الاقتصادية عليها.

ثانيًا: النشاط الثقافي

يمكن تقسيم هذا النشاط خلال هذه الفترة الزمنية إلى ثلاثة مجالات هي: مجال تعليمي، مجال أدبي ومسرحي، مجال صحفي.

وفيما يلي استعراض لكل مجال من هذه المجالات:

(أ) المجال التعليمي:

---

(١) نفسه، ص١٠٣.

كان اليهود في مصر يقظين إلى ضرورة التعليم وأهميته لأبناء طائفتهم، لذلك ما كادوا يرون النهضة التعليمية التي قام بها محمد علي -والتي شهدتها مصر خلال القرن التاسع عشر- إلا وهيئوا لإنشاء العديد من الكتاتيب والمدارس الأولية لخدمة أبناء الطائفة.

فمثلًا بالنسبة لتعليم اليهود في مدينة القاهرة، فقد أنشئت بها أربع مدارس أولية خاصة بأبناء الطائفة اليهودية، كان أكبرها وأشهرها المدرسة التي وجدت بحارة اليهود، وقد أنشئت سنة ١٨٦٠م بفضل جهود ابن الطائفة الثري صموئيل روبنيو (Samuel Rubino).

وأمَّا عن التعليم في مدينة الإسكندرية فقد وجد بها هي الأخرى أربعة مدارس، أكبرها وأشهرها المدرسة التي أنشأها ابن الطائفة (Prosper Osima)[1]. وكانت المدارس اليهودية بمدينة الإسكندرية تتشابه مع المدارس الأوربية، من حيث نظام التعليم أكثر من مدارس القاهرة.

واستمرت المدارس اليهودية في القاهرة والإسكندرية لا تخضع لأي سلطة، إلى أن كانت سنة ١٨٧٥م حيث تكونت في هذه السنة لجنة من بعض رجال الدين اليهودي وأعيان الطائفة للإشراف على تلك المدارس.

---

(١) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر منذ نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨-١٨٨٢م، الجزء الثاني، ص٨٤١.

أما عن التعليم في هذه المدارس فقد كان للذكور والإناث معًا، وكان يدرس فيها كافة العلوم التجارية واللغات والمعلومات العامة، كذلك كانوا يتلقون دروسًا أسبوعيًّا في التلمود.

اهتم اليهود بالدرجة الأولى بتدريس العبرية، ثم اللغة العربية وبقية اللغات الأجنبية، وخاصة اللغات التي لها صلة بنشاطهم الاقتصادي.

أمَّا عن سن التلاميذ والتلميذات الذين كانوا يلتحقون بهذه المدارس - فكان يبدأ من سن الخامسة، وكان التعليم في معظمه بالمجان، وإذا قدر وكان هناك مصروفات فإنها كانت لا تتعدى الخمسة قروش في الشهر الواحد.

ولا تدل هذه المدارس الأولية فقط على انتشار المستوى التعليمي بين أبناء الطائفة اليهودية في مصر، إذ كان معظم أبناء اليهود الأثرياء يذهبون إلى المدارس الأجنبية أكثر من ذهابهم إلى المدارس الخاصة بالطائفة[1].

ولم تكن هذه المدارس خاصة بالتلاميذ المتجنسين بالجنسية المصرية، إذ وجد بين تلاميذ وتلميذات هذه المدارس من ينتمون إلى جنسيات مختلفة من اليهود.

والدليل على أن التعليم بين أبناء الطائفة اليهودية في مصر لم يكن مقصورا على تلك المدارس الأولية التي كانت تشبه الكتاتيب، أنه قلَّ أن يوجد يهودي غير متعلم[2].

---

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣- ١٨٧٩م، المجلد الأول، ص٢١٦.

(٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق، ص٨٤١.

وعلى هذا فإن عدد الأميين بين اليهود سواء من الذكور أو الإناث كان قليلًا، إذا ما قيس بغيرهم من المصريين خلال تلك الفترة التي انتشرت فيها الأمية بينهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن اليهود كانوا يعتبرون العلوم التي يتعلمونها في المدارس -سواء الخاصة بالطائفة أم غيرها- ما هي إلا أسلحة اجتماعية لا يحتاجون إليها إلا ليخوضوا بها معترك الحياة[1].

ومن هذا يمكن معرفة إلى أي مدى كان انتشار التعليم بين أبناء الطائفة اليهودية في مصر.

(ب) المجال الأدبي والمسرحي:

عند التعرض للبحث في المجالين الأدبي والمسرحي -وأيضًا المجال الصحفي- للجماعات اليهودية في مصر خلال عصر إسماعيل -أي خلال الفترة التي سبقت الاحتلال البريطاني لمصر مباشرة- يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى شخصية يهودية لعبت دورًا خطيرًا في هذه المجالات لا يمكن إغفالها، ألا وهي شخصية «يعقوب صنوع» (James Sanua) ذلك الكاتب اليهودي

(١) إلياس الأيوبي: المرجع السابق، ص٢١٦.

الفرنسي التبعية[١]، الذي حمل لواء النشاط اليهودي في هذه المجالات خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر[٢].

وقبل التعرض للحديث عن المجال الأدبي والمسرحي وأيضًا المجال الصحفي، لا بدَّ من الإشارة إلى شخصية ابن صنوع الذي يعتبر حالة فردية لليهود المثقف خلال هذه الفترة.

ولد يعقوب صنوع بالقاهرة في ١٥ إبريل سنة ١٨٣٩م من أبوين يهوديين[٣]، تثقف بالثقافتين الفرنسية والإيطالية، شجعه الخديوي إسماعيل كثيرًا عندما كان أدب ابن صنوع موجهًا إلى نقد الباب العالي، وبلغ هذا التشجيع مداه حين لقبه هذا الخديوي بموليير مصر[٤].

عُرِف في الوسط الأدبي بـ«أبو نظارة زرقاء». ولعل السبب في هذه التسمية راجع إلى:

أولًا: أنه دائمًا يحمل عوينات زرقاء؛ إذ كان ضعيف النظر[٥].

---

(١) أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، الجزء الأول سنة ١٨٦٣م- يناير سنة ١٨٩٢، ص١١٠.

(٢) B.M. HOLT. Political and social change in Modern Egypt - p. ١٩٦.

(٣) عبد الحميد غنيم: صنوع رائد المسرح المصري، ص٢٣.

(٤) دكتورة لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص٩١.

(٥) مجلة التهذيب: العدد الأول من السنة الثانية، ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٢م، ص١١.

ثانيًا: أنه كان يرغب في أن يكون الناقد صاحب المنظار الذي يرى الخافي والسر المحجوب عن العين المجردة.

كان يدرس الفنون الجميلة واللغات التي أجادها للأمراء وعائلات رجال القصر، ولعل عمله هذا شجعه كثيرًا على نقد هذه الأوضاع فيما بعد.

كان ابن صنوع يجد لذة ومتعة في معاشرة عامة الشعب؛ إذ كان كثير الجلوس معهم في المقاهي والمنتديات وبعض جلسات سمرهم.

كذلك كان على علاقة وثيقة بكبار المفكرين في ذلك الوقت، مثل جمال الدين الأفغاني الذي أوصاه بإصدار صحيفته الهزلية المعروفة بأبو نظارة[1].

هذا بالإضافة إلى أن ابن صنوع كانت علاقته وطيدة بالوطني المعروف أحمد عرابي، والدليل على هذه العلاقة الرسائل التي نشرت أخيرًا[2] والتي تبادلاها أثناء نفيهما خارج الوطن.

ومن قراءة هذه الرسائل تتضح قوة العلاقة والصداقة بين الرجلين «ابن صنوع وأحمد عرابي».

---

(١) مجلة الهلال: العدد الثالث للسنة ٧٩، بتاريخ ١ مارس سنة ١٩٧١م، ص٩٧.

(٢) مجلة الهلال، العدد الثالث للسنة ٧٩، بتاريخ ١ مارس سنة ١٩٧١، ص٧٠.
تحت عنوان وثائق جديدة وخطيرة عن الثورة العرابية - بقلم فريدة مرعي.

نفي ابن صنوع إلى باريس -منفى الأحرار- في جميع أنحاء العالم في يوليو ١٨٧٨م، ومن باريس ظل يمارس عمله الأدبي والصحفي إلى أن وافته المنية سنة ١٩١٢م خارج بلده.

ومن أهم ما تم إنجازه في هذين المجالين:

مثلًا المجال المسرحي إنشاء المسرح العربي في مصر سنة ١٨٧٠م، وكان على يد ابن صنوع؛ بالرغم من الآراء المختلفة التي ذكرت أن مصر عرفت المسرح على يد سليم النقاش، والبعض في هذه الآراء ذكر أنها عرفته على يد شوقي؛ إلا أن التاريخ أثبت خطأ هذين الرأيين؛ فبالنسبة للرأي القائل أن مصر عرفت المسرح على يد سليم النقاش يمكن القول أن فرقة سليم النقاش هذا قد أتت إلى مصر سنة ١٨٧٦م؛ أي بعد معرفة مصر بالمسرح. أمَّا بالنسبة للرأي الثاني القائل بأن مصر عرفت المسرح على يد شوقي، فيمكن الرد عليه بأن أدب شوقي كان مترجمًا ومتأثرًا بالأدب الفرنسي، ومن هنا يتضح أن مسرح ابن صنوع هذا كان مسرحًا عربيًّا منفردًا، وقد ولد هذا المسرح على مقهى حديقة الأزبكية سنة ١٨٧٠م[1]، وقد قرر ابن صنوع إنشاء هذا المسرح في القاهرة، لما رآه من رداءة ما كانت تقدمه الفرق الأجنبية في ذلك الوقت، وقد وافق الخديوي إسماعيل على افتتاح هذا المسرح، وقدم عليه في بداية الأمر روايات غنائية من فصل واحد، ثم قرر ابن صنوع بعد ذلك تكوين فرقة مسرحية بمعنى الكلمة، إلا أنه قد واجهته عدة مصاعب كان أهمها صعوبة إيجاد العنصر النسائي في ذلك الوقت، فكان يستعيض عنهنَّ بإسناد أدوار هؤلاء النساء إلى

(١) مجلة التهذيب، العدد الأول، من السنة الثانية، ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٢م، ص١٣.

رجال متنكرين في ملابس سيدات، إلى أن استطاع العثور على فتاتين أدخلهما في فرقته.

وبالرغم من أن هذا المسرح لم يستمر أكثر من عامين[١]، إلا أنه قدمت عليه أكثر من اثنتين وثلاثين رواية تضمنت نقد المجتمع المصري في كافة النواحي الاجتماعية والسياسية.

أمَّا عن النشاط الأدبي للجماعات اليهودية، فإنه أيضًا كان محصورًا في شخصية ابن صنوع؛ إذ إنه بعد إغلاق مسرحه سنة ١٨٧٢م قرر تأسيس جمعيتين أدبيتين علميتين هما: جمعية محفل التقدم، وجمعية محبي التقدم[٢].

وكانت هاتان الجمعيتان من عوامل تكوين الرأي العام في مصر خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر، والدليل على مدى أثر هاتين الجمعيتين أنه كان يحضر جلستيهما شخصيات لها وزنها في الحياة الأدبية في مصر، مثل مشايخ الأزهر وطلابه.

وقد اضطرت هاتان الجمعيتان إلى إغلاق أبوابهما سنة ١٨٧٤م، بعد الاضطهاد الذي وجهه إليهما الخديوي إسماعيل وأعوانه.

---

(١) عبد الحميد غنيم: المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) دكتورة لطيفة محمد سالم: المرجع السابق، ص٨٢.

(ج) المجال الصحفي:

كان نشاط الجماعات اليهودية في مصر في المجال الصحفي خلال عصر إسماعيل محصورًا في جريدة أبو نظارة زرقاء، وقد صدرت هذه الجريدة سنة ١٨٧٧م، وكان هذا العام حافلًا بالنشاط الصحفي[١].

وكانت هذه الجريدة الأولى من نوعها في الشرق؛ حيث إنها صحيفة هزلية كاركاتيرية صادرتها الحكومة المصرية بعد العدد الخامس عشر، حيث تعرضت هذه الجريدة لنقد الخديوي إسماعيل وحاشيته بأسلوب ساخر؛ فمثلًا كانت تلقب الخديوي إسماعيل بلقب «شيخ الحارة» والفلاح المصري بلقب «أبو الغلب»، وغيرها من الألقاب التي لاقت صداها عند الشعب المصري.

وبعد نفي ابن صنوع محرر هذه الصحيفة إلى باريس، استمر يرسل بجريدته سرًّا، وكانت الحكومة كلما اكتشفتها صادرتها وحرمت دخولها مصر، فكان ابن صنوع يتحايل على ذلك بتغيير اسم الجريدة، حتى بلغ عدد الأسماء التي حملتها اثني عشر اسمًا[٢]. ومن هذه الأسماء على سبيل المثال: أبو نظارة، وأبو زمارة، وأبو صفارة والحاوي[٣].

---

(١) مجلة الكاتب المصري، العدد ١٨، ١٨ مارس سنة ١٩٤٧م، المجلد الخامس، ص٢٦٤.

(٢) الدكتور إبراهيم عبده: أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر من سنة ١٨٣٩م- ١٩١٢م، ص٧٦. عبد الحميد غنيم: المرجع السابق، ص٤١.

(٣) المرجع السابق: ص١٢١، ١٢٢.

وبالإضافة إلى هذا المجال الثقافي كانت مدينة الإسكندرية من أسبق المدن المصرية التي شهدت بداية المطابع التي أنشأها اليهود؛ حيث أسسوا خلال الفترة قبيل الاحتلال مطبعتان؛ الأولى سنة ١٨٦٢م، والثانية سنة ١٨٧٣م[١]، ومن ثم يتضح أن اليهود قد انتهزوا أي فرصة لنشر الثقافة، أو كان أسلوبهم هو للسيطرة على المجال الثقافي من خلال الصحافة والمطابع، أو أي وسيلة تساهم في تكوين الرأي العام خلال تلك الفترة، وإن كان هذا الأسلوب لم يكن واضحًا إذا ما قورن بمثيله في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، وربما يرجع السبب في ظهور هذا الأسلوب أكثر في النصف الأول من القرن العشرين، إلى أن اليهود أصبح أمامهم هدف سياسي لا بدَّ من بذل كل الجهود لتحقيقه. وربما كانت طبيعة تطور الصحافة والمطابع خلال فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين وراء هذا.

والرأي الصواب أن الاثنين معًا كانا من عوامل سيطرة اليهود على وسائل الإعلام، وما يرتبط بها من طباعة وغيرها، بينما قبيل الاحتلال البريطاني لم يكن هذان العاملان متوفرين بمثل هذه الدرجة[٢].

بعد هذا العرض يمكن إدراك حجم الدور الثقافي الذي لعبته الجماعات اليهودية، وإن كان في الواقع محصورًا في شخصية ابن صنوع.

---

(١) مجدي مصباح عبد الرحمن: رسالة ماجستير غير منشورة أعدت بجامعة الإسكندرية عن الجاليات الأجنبية في مدينة الإسكندرية، وموقفها من الحركة العرابية (سنة ١٨٧٩م-١٨٨٢م) ص١٧٥-١٧٧.

(٢) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

وبالإضافة إلى النشاط الثقافي لهذه الجماعات اليهودية في مصر، وجدت جمعية سرية حملت اسم «جمعية اتحاد مصر الفتاة» تأسست بالإسكندرية[١] في أواخر حكم إسماعيل، وكان أعضاء هذه الجمعية من الأجانب، وإن كان أغلبهم من الشبان اليهود[٢].

وأهداف هذه الجمعية هي: مقاومة الخديوي إسماعيل واستبداده خلال الفترة الأخيرة من حكمه، وهنا يتضح مدى تدخل الأجانب عامة واليهود خاصة في شئون مصر.

وقد صدرت عن هذه الجمعية جريدة متطرفة باسم «مصر الفتاة» مهمتها الأساسية نقد الخديوي إسماعيل، وتقديم النصح والإرشاد له، وكانت هذه الجريدة تصدر باللغتين العربية والفرنسية بهدف إيهام الخديوي إسماعيل بأن الجمعية التي تصدر عنها هذه الجريدة خليط من المصريين الوطنيين والإفرنج[٣] وتسعى لخلع الخديوي.

وبالفعل كان الخديوي إسماعيل يخشى هذه الجمعية السرية، وبحث طويلًا عن أعضائها؛ ولكنه ترك حكم مصر قبل معرفة ما هي هذه الجمعية.

---

(١) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، ص٧٥.

(٢) نفسه، ص٧٥.

(٣) جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، ص٧٩.

وبجانب جريدة مصر الفتاة التي أصدرتها الجمعية، كانت أيضا تصدر عدة منشورات[١] سببت كثيرًا من القلق للخديوي إسماعيل.

وبعد خلع الخديوي المشار إليه وتولية الخديوي توفيق، وجهت هذه الجمعية لائحة إصلاح[٢] إلى الخديوي توفيق تضمنت ثلاثة فصول:

الفصل الأول: عن حالة مصر أواخر حكم إسماعيل.

الفصل الثاني: عن أسباب شقاء مصر خلال هذه الفترة.

الفصل الثالث: الوسائل التي تقترحها هذه الجمعية لإصلاح أحوال مصر خلال هذه الفترة.

ويمكن معرفة مدى تأثير هذه الجمعية السرية، إذا وضع في الاعتبار أنه كان من بين أعضائها كبار المفكرين المصريين خلال هذه الفترة؛ هذا على الرغم من الأقاويل التي أشيعت حولها من أنه لا يوجد بين أعضائها مصري حقيقي[٣] - من أهم أعضائها الذين أشير إليهم في بعض المراجع: جمال الدين الأفغاني، وأديب إسحاق، وسليم النقاش، وعبد الله النديم، ونقولا توما[٤].

---

(١) الدكتور عبد المنعم الدسوقي الجميعي: الثورة العرابية في ضوء الوثائق المصرية، ص١١.

(٢) هذه اللائحة توجد في كتاب الدكتور عبد المنعم الدسوقي الجميعي، المصدر السابق، ص٤٦، وهي مرفوعة إلى الخديوي توفيق.

(٣) محمد رشيد رضا: المرجع السابق، ص٧٥.

(٤) جورجي زيدان: المرجع السابق، ص٧٩.

ومن هنا يمكن الوقوف على دور اليهود في المجتمع المصري خلال الفترة التي سبقت فترة الدراسة مباشرة.